جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 39 / آذار 2024

صورة مكة المكرمة في أدب الرحلة الغربي
أنموذجا رحلة (محمد أسد) في (الطريق إلى مكة)

The image of Mecca in Western travel literature Model of (Muhammad Asad's) Journey in (The Road to Mecca)

آية عباس فؤاد
Aya Abbas Fouad
أ.د علي محمد ياسين
Prof. Dr. li Muhammad yassin

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University Of Karbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية: صورة، مكة المكرمة، ادب الرحلة.

key words: Image , Mecca , Literature of the Journey.

الملخص

يقوم أدب الرحلة بالدرجة الأساس على السفر واكتشاف الآخر غير المكتشف من خلال عقد العزم على شد الرحال إليه واقتحام مدنه وخصوصياتها بهدف عرض هذا الاكتشاف على آخرين لم تسنح لهم فرصة هذا الاكتشاف، ولم يتعرفوا على تفاصيل هذه المدن بخلواتها الضيقة أو بفضاءاتها العامة.

وهذا اللون من الأدب قديم قدم الإنسان الراغب في اكتشاف ما هو مغاير ومختلف، وقد عرفه أدبنا العربي في العصور السابقة عبر الرحلات التي قام بها الجغرافيون والرحالة العرب المشهورون كابن فضلان وابن بطوطة وغيرهما.

أما أدب الرحلة في تاريخنا المعاصر فقد لجأ كتابه إلى السرد المشوق وإلى الخيال الأدبي وإلى عرض الحقائق بأسلوب خاص يستطيع من خلاله الرحالة أن يشد القارئ إلى كتابته التي صارت تدخل الآن كمادة قابلة للتحليل والفحص في مختبرات قراءة الآداب وتأويلها، وهذا ما سنحاول القيام به من خلال هذا البحث الموجز عن الصورة التي رسمها (ليوبولد فايس) المسمي نفسه (محمد أسد) –بعد دخوله الإسلام عندما اصطدم بأهله وعرفهم عن كثب– لمدينة مكة المكرمة بعد أن زارها وكتب عنها كتابا أسماه (الطريق إلى مكة) من الممكن أن يدخل ضمن أدب الرحلات لما اشتمل عليه من تصوير لهذه الرحلة وتسجيل حيثياتها التي سجلها سرده الجميل من أول لحظة فكر فيها في اقتحام الأهوال وركوب البراري الطويلة من أجل أن يكتشف هذه المدينة التي شكلت الوعي الإسلامي وأخرجت للكون فكرا قادرا على استقطاب الآخرين المختلفين حتى يومنا هذا.

Abstract:

The literature of the trip is based mainly on traveling and discovering the undiscovered other by determining to tighten his journey to him and storming his cities and their peculiarities in order to present this discovery to others who did not have the opportunity of this discovery, and they did not know the details of these cities with their narrow vacations or their public spaces. This color of literature is as old as the person who wants to discover what is different and different, and our Arab literature has known it in previous times through the trips made by the famous Arab geographers and travelers such as IbnFadlan, Ibn Battuta and others. As for the literature of the journey in our contemporary history, his book resorted to the interesting narration, to the literary imagination, and to presenting the facts in a special way through which travelers can draw the reader to his writing, which is now entering as a subject that can be analyzed and examined in the laboratories of reading and interpreting literature, and this is what we will try to do through this brief research on the image drawn by (Leopold Weiss) the same name (Muhammad Asad) - after He entered Islam when he clashed with his family and knew them closely - to the city of Makkah Al-Mukarramah after he visited and wrote about it a book he called (The Road to Mecca). It can be included in the literature of trips because of the depiction of this trip and recording its details recorded by his beautiful narration from the first moment he thought about storming the horrors and riding the long prairie in order to

discover this city that formed the Islamic consciousness and brought out the universe Thinking is able to attract different others to this day.

المبحث الأول: في حياة ليبولد فايس أو (محمد أسد):

وُلد(ليوبولد فايس)لأبوين يهوديين بإحدى مقاطعات النمسا عام(1900م) التي ضمت لألمانيا بعد ذلك[1].

وقد عاش حياتهُ في مدينة اسمها (ليبو أو لومبيرغ) في الجزء الشرقي من النمسا، وقد أمضى معظم إيام طفولته هناك ولاحقًا في فيينا، وكان والده قد ترك الأمر له ليقرر ماذا سيفعل ولم يكن سعيدًا جدًا حين ترك الجامعة بعد سنتين ليصبح صحفيًا لكنه تقبل الموضوع[2].

فالوالد كان يريد لولده أن يواظب على دراسة النصوص الدينية، وهكذا وجد نفسه وهو في سن الثالثة عشرة يقرأ العبرية ويتحدث بها بإتقان، إذ درس التوراة في نصوصها الأصلية و أصبح عالمًا بالتوراة وتفسيره، ثم انغمس في دراسة التفسير المعقد للتوراة المسمى(ترجوم) فدرسه و كأنما يهيئ نفسه لمنصب ديني[3].

ويصف ليبولد طريقة تربيته ووعيه بسلوك عائلته في فترة صباه فيقول: (لم يكن والديَّ مُلتزمين حقًا بالدين، بل كانا ينتميان إلى ذلك الجيل الذي يمارس الطقوس الدينية فقط تلبيةً لرغبة الأهل دون أن يحاول أحدهم أن يجهد نفسه في التفكير بتلك الممارسات والمعتقدات الدينية، بل كان أغلب ذلك الجيل يتصور أن هذه الممارسات الدينية هدفها الالتزام و الحفاظ على التقاليد والأعراف الموروثة)[4].

ويضيف ليوبولد عند حديثه عن عائلته قوله: (ولكنهم لا يظهرون ما يعتقدون وما يتصورون عن الطقوس الدينية تجنبًا للنقد الاجتماعي مع كل هذا لم يكن والدي يتصرفان كما ينبغي، فكان أبي حريصًا على أن يقضي ساعات طويلة في تعلم المخطوطات اليهودية الدينية لدى أبيه ووالد زوجته)[5]، ومن خلال استقراء طفولة (ليوبولد) يتضح إن جميع الدلالات تُشيرُ إلى إقامة عائلته في مدينة ليمبورغ، لا في مكان آخر، فالمعلومات الوثائقية تبينُ أن عائلته استقرت أيضًا في مدينة كتسرنوفيتس، إذ لم يتناول الرجل في سيرة حياته الذاتية وقت وصول عائلته بشكل دقيق إلى فيينا، بل اكتفى بوصف أحداث حياته في نهاية عام 1914م، و منها سردهُ لمُغامراته الشبابية وغيابه عن المدرسة و تطوعه في الجيش النمساوي تحت اسم مُزور لكي لا يستطيع والدهُ العثور عليه و إعادته إلى فيينا، حيث أقامت عائلتنا هناك قبل مدة قصيرة[6].

ويصف أحد الدارسين معارفه التي تعلمها فيقول:(بدأ يتعلم العربية، لبضعة أشهر، ودرس أيضًا علوم التحليل النفسي التي تشكل في ذلك الوقت ثورة فكرية عظمى، وقد أحس فعلا أن تلك العلوم فتحت أبوابًا واسعة تتيح فهمًا أوسع للذات، وما أكثر الليالي التي قضاها في المقاهي ليستمع فيها إلى مناقشات ساخنة و مثيرة بين رواد التحليل النفسي المبكرين من أمثال: (الفريد أدلر و هرمان سيتكل))[7].

وهكذا يبدو أن طفولة (ليوبولد فايس) تأثرت بالخلفيات الدينية والسياسية والاجتماعية لعائلته ذات الديانة اليهودية التي تلقى على وفق تقاليدها دروسًا أساسية في جميع علوم الشريعة اليهودية إلى درجة مكنته من تعلم العبرية في سن الثالثة عشرة، وكان الشاب (ليوبولد فايس) محبا للعلوم الطبيعية، ولا سيما بعد قبوله في جامعة فيينا حينها

ظهر رغبته في دراسة علوم الفيزياء والكيمياء، وعلى عكس ما كانت تتوقع منه عائلته (بعد دخوله الجامعة) بدأ ليوبولد فايس بالابتعاد عن معتقد أسلافه وآبائه، وعن عاداتهم و تقاليدهم اليهودية، وهو سلوك أخذ يكبر معه كلما امتدت به سنوات العمر[8].

وفي نقدِهِ الديانة اليهودية كان ليبولد يصب اهتمامه على المُبالغة المُفرطة في تأدية المراسيم الدينية اليهودية، ويبغض عند اليهود حب الاستعلاء والتفوق على الآخرين، التي كرستها في ذهنه اطلاعاتهُ في هذه الفترة على مبادئ العقيدة الإسلامية في العدالة والمساواة.

وقد أدت هذه المعرفة دورًا حاسمًا في دخوله إلى الإسلام تاليا، وفي الاطلاع على التصورات الدينية المسيحية بسبب إحباطه و خيبة أمله بعد أن اصطدم بحقيقة واقع محيطه الديني بطقوسه اليهودية التي لم ترق له و هو ما دفعه إلى العزوف عن النصرانية تمامًا قبل الدخول إليها[9].

وهذا ما أوضحه (مارتن م.غولدنبيرغ) الأخ غير الشقيق لـ(ليوبولدفايس)، وكما ينقل لنا (جونثرفندهاغر) يمكنُ من خلاله معرفة التصور العقدي لعائلة (فايس) بشكل أوضح من خلال وجهات النظر السياسية خصوصًا لكارل فايس (والد ليوبولد فايس) بقوله: (لقد كان أبي رجلاً طيبًا ومُسالمًا ومُتفتحًا، لكن لم تكن لديه تجارب كافية مع العالم الخارجي، عندما كان شابًا أراد أن يدرس في الأكاديمية الخاصة بالأحبار اليهود ليصبح بعدها حاخامًا، إلا أنهُ انصرف عن ذلك وبدأ بدراسة الحقوق [...] و ما الموقف السياسي للعائلة ؟ كان أبي رجلاً مُتأثرًا بالحركة الاجتماعية الديموقراطية، ولم يكن أبدًا مُحبًا للفكر الماركسي، على الرغم أنهُ مُفكرٌ مُتفتحٌ فإنه كان يبدي احترامهُ للأعياد الدينية اليهودية التي كانت تُذكرهُ بأبيه من الناحية الروحانية، كما أنهُ كان مُناهضًا لأي فكر قومي، ولهذا السبب اتخذ موقفًا معاديًا للحركة الصهيونية)[10].

وكانت السنوات الدراسية لليوبولدفايس بين الأعوام (1914–1918م) غير مستقرة جدًا في حياته، بحيث إنهُ غَيَّر في غضون السنوات الثلاث الأولى ثلاث مدارس مختلفة، بل كان مجرد طالب أدى امتحانهُ في تلك المدرسة إلا أن تلك الوثائق لم تعطِ أيضًا أجوبةً واضحةً حول أسباب تغيير (ليوبولدفايس) أماكن دراسته بشكل مستمر وبدون سبب مقنع[11].

وقد بدأت الحياة الجدية لـ(ليوبولدفايس) بالعمل مراسلا صحفيًا في بداية مشوار حياته(1922م) لمنطقة الشرق الأدنى في جريدة (فرانكفورت)، ليتعرف على العالم الإسلامي خلال إقامته الطويلة بين ظهرانيه معن كثب وليصبح بعدها من أهم المهتمين الغربيين بالإسلام وأهله، إذ وصفته الصحف والنشرات الإعلامية الأوربية على صفحاتها الأولى بـ(سفير الإسلام)، (وشيخ علماء المسلمين)، وسوى ذلك من نعوت تليق به.

وقد كانت هناك الكثير من التساؤلات حول شخص يهودي كليوبولد فايس تمكن من العمل كصحفي نمساوي يهودي من أن ينال هذهِ المرتبة الرفيعة بين علماء العالم الإسلامي دون أن يثير الشكوك والريبة وهو ما يحتاج إلى دراسة خاصة تقرأ من خلالها أفكار هذا الرجل وتوجهاته. ومع بداية احتكاكه بالمُحيط الإسلامي منذ وصوله إلى المملكة السعودية تقريبًا في نهاية شهر مايو من عام 1927م لفت (ليوبولد فايس) الأنظار إليه، وكان عمل قبل تلك المدة مراسلاً صحفيًا في عدد من الدول الممتدة بين مصر و أفغانستان من عام (1923– 1926م)،

وعلى أثرِ تنقله بين تلك الدول تعرف على الإسلام وأهله وأعجب بتعاليم هذا الدين فقرر اعتناقه متحديا كل المصاعب والمتاعب التي قد يسببها له هذا القرار الخطير، ولذا كان يبحث على الدوام في كتبه وأطروحاته الفكرية عن حوار صادق مع المفكرين الغربيين من أجل تعريفهم بحقيقة الإسلام وأهله، وبغية نبذ صور العنف، وتجنب التمييز العنصري والتقليل من إصدار الحكم المتعجل على الأمور غير المدروسة عن قناعات المسلمين وأفكارهم، ويمكن اختزال أفكار هذا الرجل الذي أطلق على نفسه اسم (محمد أسد)[12]. بعد دخوله الإسلام بعناوين بعض ما نشره من كتب ودراسات وموسوعات وهي كالآتي:

أ- الإسلام في مفترق الطُرق.

ب-مبادئ الدولة والحُكومة في الإسلام، الإسلام والغرب.

ت-الإسلام و السياسة.

ث-ورسالة القرآن.

ج- الطريق إلى مكة وهو محور هذه الدراسة التي تدور عن صورة مكة التي رسمها (محمد أسد) لمكة بعد أن زارها في رحلة مدهشة وعجيبة.

المبحث الثاني: صورة مكة في رحلة (محمد أسد):

عرفت مكَّة المكرَّمة عند العرب قبل الإسلام، فقد كانت من أهم المدن الثقافية والتجارَّية وأهم المدن من جهة القداسةً والعراقةً، وفضلاً عن كونها من أعظم المدن عند المسلمين في الوقت الحاضر، إلى جانب المَدينَة المنورة والمسجد الأقصى المبارك بالقدس، وهي ثالث المساجد في الإسلام و كذلك يعد من أهم الديار من جهة القدسية، وبعد أن أصبحت قبلة المسلمين، تعدَّ مكة الكرمة مهبط الوحي و ملتقى الشعوب الإسلامية كلها و حيث يتطلع قلوب المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها لأداء مناسك الحج و العمرة و حيث أقسم الله تعالى بها في القرآن الكريم في أكثر من موضع و بأكثر من اسم لمَا لها من أهمية و فضل و عظيم قدرها عند الله تعالى و في قلوب المسلمين، وهي إحدى فرائض الإسلام الخمس التي فرضها الله تعالى على المسلمين[13].

يعدُّ(كتاب (الطريق إلى مكة) من أهم الكُتب التي تحدث فيها (محمد أسد) عن سيرة حياته؛ وخصوصًا عن سنواته الأولى إلا أن هذا الكتاب لا يمكن الاستنادُ إليه مرجعًا لسيرة حياة محمد أسد، وذلك لعدد من الأسباب، أهمها: إن أسلوبه في رواية الأحداث المعتمد على ما يتذكرهُ في أثناء التأليف، وهذا ما جعل هناك فارقًا زمنيًا واضحًا بين الحدث المروي من قبله، وبين وقوع الحدث الذي عاشهُ فعلاً، وهذا يؤدي في بعض الأحياء إلى عدم الدقة في عرض الأحداث والوقائع، بعض الأحيان إلى تخيل أسد بأنّه قد عاش تلك الأحداث فعلاً، والسبب الآخر الذي لابد من ذكره طبيعة الوضع السياسي و الاجتماعي المُحيط بالكاتب و الذي أثر في أسلوبه، ومن ثم في العمل بأكمله)[14].

وقد وصفت إحدى الصحفيات الأوربيات المشهورات(مارسيا هرمنسن) آنذاك كتاب(الطريق إلى مكة) بأنه من أشهر قصص أدب اعتناق الديانات، واستشهدت بأمثلة أخرى مشابهة لكتاب أسد كلها تجمع على ظهور عدد من الكُتاب والصحفيين المتميزين الذي رحلوا عدة رحلات إلى الشرق الأدنى وأماكن أخرى في مطلع العشرين أمثال ريتشارد برمان (فيما بعد) آرنولد هولريكل، الذين نشروا عددًا من التقارير حول رحلاتهم إلى مصر وتركيا وفلسطين والأردن والعراق[15].

أما إدوارد سعيد فقد ذكر عن الكتاب والكاتب قوله:(عندما يقوم مستشرق بتقليد الشرق دون أن يحدث تغيراً عكسياً –بالمقابل– فإن ذلك التبادل ينبغي أن يفهم على أنه تبادل من طرف واحد، لأنه يراقبهم ويُدون كل ما يقولون وكيف يتصرفون، لقد استمد أسد قوته من خلال إقامته بينهم، واستطاع عن طريق ذلك أن يتعلم لغتهم ليصبح فيما بعد واحدا من بين كتابهم.

إن كل ما كتبه أسد لم يكن يتمتع بالفائدة لهم فقط، بل لأوروبا ولمعاهدها ومؤسساتها المختلفة)[16].

ولعل هذه المقولة تعطينا تصورا عن طبيعة الصورة التي رسمها (محمد أسد) لمكة وأهلها وهي صورة متحيزة بطبيعة الحال وليست صورة يرسمها آخر لآخر مختلف، أما أبعاد هذه الصورة فيمكن تحديدها من خلال الأبعاد الآتية:

أ– صدر كتاب (الطريق إلى مكة) في عام 1955م بالألمانية، ونقل إلى اللغة الإنكليزية ونشر في أمريكا ثُمَ بعد ذلك في انكلترا، ثم ترجم إلى لغات عديدة كالهولندية واليابانية والسويدية والفرنسية والأوردية، كما ترجم للعربية بترجمة الأديب رفعت السيد، ويحتوي الكتاب على (559) صفحة، بنشرة دار الجمل ببغداد– بيروت عام 2010، فقد كانت طبعتهُ الأولى عام 2010م.

ب– وحكايته ببساطة هي حكاية اكتشاف رجل أوروبي للإسلام كدينٍ متكاملٍ في أي مجتمع إسلامي، فهو رجل كان عندهُ شعور من التعاطف غريب نحو الشرق وتحديدًا نحو الإسلام، إذ لم يأتِ بخاطره يوما أن يكتب عن تلك الرحلات والمغامرات التي لا تشكل أهمية عنده، وعندما ترك أسد حياته في النمسا واتجه نحو الشرق وبالخصوص نحو فلسطين، ظل حوالي أكثر من خمسة و عشرين عامًا بعيدا عن عالم الغرب، ولمح بعينه اضطهاد اليهود للشعب الفلسطيني، وآلمه مشاهدة الفلسطينيين يخرجون من أرضهم دون سبب، ومن هنا بدأت مشاعره تتحرك نحو الشرق ونحو الدين الإسلامي، الذي أخذ يقرأ كثيرًا عنه لتراود عقلهُ كيف كانوا يعيشون أهل هذهِ البلدان وما هي قناعاتهم، لذا كان طريقه إلى الإسلام فريدًا من عدة أوجه، فهو لم يتحول إلى الإسلام؛ لأنه عاش زمنًا طويلاً بين مسلمين بل على العكس فقد قرر الرجل أن يعيش بينهم لأنهُ اراد اعتناق الإسلام والتزيين بزيهم.

ت–رأى (محمد أسد) العرب في رحلته قبل الدخول إلى مكة قوما من الفقراء لكن مع هذا لديهم روح المرح والضحك، مما أثارت استغرابه هذه المقدرة على الضحك وعلى تحمل الواقع المعاشي الصعب آنذاك، ليتساءل لماذا العرب يمتلكون القدرة على الضحك؟ ليجد الإجابة أن ذلك بسبب عقولهم الحرة و صفاء قلوبهم ونفوسهم الطيبة ليصلوا إلى هذا الحد من الهدوء والسكينة، وكل هذه الصفات التي يتميزون بها هي من البساطة في العيش[17].

ث–وهذا على عكس رأي أغلب الأوروبيين المعتقدين أن العرب سطحيون وبلداء ويضمرون العداوة والشر، مما يدلل على خطر رؤية الأوربيين وعدم صوابها عند الحكم على شخصية الشرقي عموما والعربي خصوصا، فالعرب ظلوا متحررين (على الدوام)؛ بسبب الصحراء من تلك التوترات الداخلية و الضغوط النفسية مما أورثهم الحكمة والتأني والروية على عكس ما يشاع عنهم[18].

ج– ولكنه بعد أن عاش مع العرب وتعايش مع المسلمين نجده يقول عنهم هذه المقولة التي لا يمكن أن تصدر إلا من عربي بالانتساب مسلم بالديانة: (لم أعد أجنبيًا ولا غريبًا، أصبحت الجزيرة العربية موطني، تحول ماضّي الغربي إلى حلم بعيد لم يصبح حلمًا غير واقعي تمامًا حتى أنساه، فقد يذكر مؤلف الكتاب (محمد أسد) مكثتُ عدة أشهر في المدن، فقد سكنتُ في مدينة و أصبحت تجمعني علاقة وطيدة مع أبناء المدينة، وبعد ذلك قررت أن اناسبهم وأن واتزوج أحد بناتهم، وأصبحت الزوجة الثانية لمحمد أسد عربية الأصل و لأسد ابن منها أنه ابنه الوحيد، ومكتبة مليئة بالكتب عن التاريخ المبكر للإسلام) يزداد قلقي ويعزوني الشغف إلى المغامرة و الحركة وأشتاق إلى جو الصحراء و إلى رائحة الأبل)[19].

ولما كان(محمد أسد) متلهفا إلى زيارة بيت الله(الكعبة) والتعرف على أحوال مكة و ما يدور حولها وبها، فقد ذكر الكيفية التي دخلته إلى مكة عبر الصحراء فقد كان يصور رحلتهُ في الصحراء العربية بالقول:(أنك لا تحس بعظمة الحياة وسطوتها إلا في الصحراء، فالاحتفاظ بالحياة صعب وعسير في الصحراء، والحياة فيها كالهبة، وكالكنز تحتفل بالمفاجآت وقد تدهشك الصحراء على الدوام بمفاجآتها حتى لو كنت خبيرًا بها لأعوام طويلة)[20].

ويتحدث أسد عن عواصف الصحراء التي تهب في صحراء مكة وما حولها، فقد (شاركت فيها وانتقلت إلي عدوى حماسها و أسلمت نفسي لجموحها واندفاعها وزئيرها وإحساس بفرحة و سعادة مفرطة يملآن قلبي كانت الرياح التي تمر فوق رأسي، وأنا أدفنها تحت أبط الناقة التي تنشد قائلة: لن تكون أجنبيًا و غريبًا بعد الآن.. لن تكون غريبًا أبدًا بين أبناء هذهِ الأرض...)[21].

ولعل هذه النظرة تعطينا انطباعا عن أن الموقف من الطبيعة يختلف باختلاف من ينظر إليها، فالأوربي الذي اعتاد البيئة الخضراء والغابات المغطاة بندف الثلج، وأشجار البلوط التي تكاد أن تلامس القمر لا يجد أية غضاضة في التطلع إلى الرمال الممتدة حد البصر، بل على العكس يرى أنها جميلة وساحرة وتعلم ساكنيها الصبر وتحمل الشدائد وتقوي إرادات الناس وعنفوانهم في مقاومة الطبيعة وتحديها.

ح– وكان زيارة أسد إلى أول مرة إلى مكة المكرمة عام 1927م، بعد اعتناقهُ الإسلام بعدة أشهر، وقد زارها مرارا وحين سئل لم تزورها يا أسد وقد انتهى موسم الحج نجده يجيب قائلا: ليست لدي رغبة في الحج فلقد حججت خمس مرات، لدي شعور إنني لن أبقى طويلاً في الجزيرة العربية، وأرغب في رؤية أنحاء المدينة التي بدأت حياتي بها في هذه البلاد... ويضحك من تساؤل سائله فيقول ممازحا "حسنًا يا أخي سأخبرك بالحقيقة، و أنا لا أدري بدقة لماذا تسيطر عليّ فكرة الذهاب إلى مكة، وأشعر أنه لابد لي أن أذهب إلى رحابها كل يوم فهناك شيء ما يشدني إليها باستمرار، وأن أجمل الأصوات التي سمعتها في حياتي ولن أمل من سماعها على الإطلاق هي صوت التلبية"[22]، وهكذا فإن أسد أن المتخفي عن الناس يشعر أنه محط أنظار الكثير من الناس، يقول:(فخلال

السنين التي قضيتها في الجزيرة العربية ذبت في حياة أهلها حتى بالفعل صرت واحدًا منهم، بالرغم من ذلك فأنني لم أشارك أهل مكة ولا المدينة شؤونهم التجارية، فقد كنت أقوم بدور متعهد الحجاج في مناقشات مطولة مع ركاب آخرين عن فضائل الحج... وقد قضيت الساعات الكثيرة، وأنا مستمتع بالمناقشات الممتعة التي تدور في بيننا)[23].

خ–أما الكعبة فهي موضع تبجيل لا موضع عبادة أي أنها لا تعبد وكذلك الحجر الأسود موضع تبجيل لأنه كل ما تبقى من البيت الذي أسسه إبراهيم، ولأنه محمد قبلته في حجة الوادع قبل موته، فإن كان الحجاج يفعلون ذلك اقتداء به، وكان الرسول واعيًا أن كل أجيال المسلمين من بعده ستقتدي به في كل أفعاله و أعماله، و كان يعلم أنه بتقبيله للحجر ستلتقي شفاه كل أجيال المسلمين من بعده في موضع تقبيله للحجر رمزي، و أقوى من الزمن وأقوى من الموت لكل أمته في حجها، و الحجاج حين يُقبلونَ الحجر الأسود، كأنما يحتضنون الرسول ويحتضنون كل المسلمين الذين جاءوا هنا من قبلهم و كل المسلمين الذين سيأتون هنا من بعدهم.

فقد يقول أسد: حين أقف أمامها لا أشعر برهبة أي منها كما أشعر بها الآن أمام الكعبة، لقد اقترب بانيها تمامًا من التعبير عن مفاهيمه الدينية، في البساطة المطلقة للمكعب في التخلي عن كل ادعاء بشري للجمال الفني، لقد فكر: "مهما كان الجمال الشكلي الذي يمكن للإنسان أن يصنعه بعقله ويده سيكون من قصور الخيال أن يظن أنه يتناسب مع عظمة الله، ولذلك فإن أبسط شكل يمكن أن يدركه العقل البشري هو أعظم شكل يتناسب مع عظمة الله ".

وقد تعرّف بعض الرحالة في كتاباتهم عن المرأة هو يعدُّ لونًا من ألوان بعض الرحالة التي كتبوا عن المرأة وكيف شاهدوا بعض الرحالة المرأة من ناحية الطول والشكل الخارجي و جمال تصوير العيون، فقد نرى أن محمد أسد تكلم عن هذا اللون كثيرًا في كتابهِ(الطريق إلى مكة)، فقد أخذ محمد أسد يتحدث عن جمال النساء العراقيات ولهن جمال طاغي وحضور دقيق ونهود صلبة في ذلك الوقت في مطلع كتابهِ.

فقد كان لهُ الشرف زيد صديقهُ الذي هو رفيق رحلاته، أن يناسب امرأة عراقية الأصل و الذي أحبها كثيراً فقد يصور حالهُ، وهو يقول: لقد أبهجني حبها فوق ما يطيق عقلي[24].

وهناك ثقافات إسلامية مختلفة عن الرحالة لها مجموعة من القيم و المبادئ و التصورات حول المرأة، ويمكن أن نعيد رسمها لتقديم صورة ولو صورة ذهنية أخرى عن المرأة العربية الإسلامية بصفة خاصة و المرأة بصفة عامة، وهناك فئتين من النساء فيها المرأة الحرة، المسلمة، الوقورة، وهناك المرأة المحتشمة وهي الصورة المثالية عن المرأة التي صورها ابن فضلان في نظرته للمرأة الصقلية و الخزرية، وصورة المرأة الجارية، و ان الفئتين رآها ابن فضلان خلال مسيرته وفي كل المشاهدات و المواقف التي عرضها[25].

فقد يصور ابن فضلان المرأة ويقول بُنيت قدمها عن المرأة أساسًا، على العيان والمعاينة والمشاهدة، فهي صور حسية مستمدة من الواقعي و المرئي و يقدمها وفق مظهرين هما:

أولاً: ارتباط المرأة بمشهد يثير الرحّالة، فمثلاً إن صورة عدم احتشام المرأة التركية والروسية وهناك امرأة بطبيعتها باعثة للدهشة، و الرحالة في هذهِ الحالة لا ينقل إلا ما هو مدهش ومثير للعيان.

وثانيًا: واختلاف ثقافة الرحالة اختلاف ثقافة الشعوب التي ارتحل إليها، أو مرّ منها على مستوى الأحوال الشخصية، والزواج، الأسرة، وعلى مستوى العادات والتقاليد[26].

فقد(كان هناك مكانة للمرأة كبيرة وأولو لها الاهتمام، وقد شبها العرب باسم "الزهرة "، أو "النجم الأبرق"، وأن سألتهم عنها سيقولون لك إن " النجم الأبرق" أو " الزهرة " كان في سالف الزمان امرأة.

وهناك قصة في سالف العصر والزمان هي قصة ملكين هما هاروت و ماروت، وقد نسيا فضيلة التواضع التي ينبغي ألا ينساها الملائكة، وتباهيا بنقائهما الذي لا يمكن تلويثه، كانا يقولان:" نحن مخلوقان من النور فوق الخطايا والذنوب والرغبات، يعكس أبناء البشر ضعفاء الإرادة أبناء الأرحام المظلمة، إلا أنهما تناسيا أن نقاءهما لا ينبع من إرادتهما، وأنهما صالحان لأنهما خاليان والشهوات، وبالتالي لم يطلب. الله منهما أن يقاوما ما لا يشعران، لم يرض تباهيهما و تكبرهما ربهما الذي خلقهما)[27].

فقال (لهما: "اهبطا الأرض و اختبرا نقاءكما وقوة إرادتكما فيها "، هبط الملكان المتباهيان إلى الأرض وراحا يسعيان في مناكبها وهما في صورة بشرية بين أبناء البشر، وفي أول ليلة لهما على الأرض مرّا بامرأة ذات جمال يخلب الألباب حتى إن الناس كانوا يسمونها " المتألقة ".

حين تطلع إليها الملكان بعيون البشر ورغبات البشر، وأصابتهما حيرة وبلبلة، ومثل أبناء البشر التهبت رغبتهما في إتيانها.

قال كل منهما لها: " أشتهيك فاستجيبي "، إلا أن المرأة المتألقة قالت لهما: " هناك رجل أنتمي إليه، إن أردتماني حرراني منه أولاً"، فذبحا الرجل وحين كان دم الرجل مازال يقطر من أيديهما وأتياها و أشبعا رغبتهما وجوعهما الذي كان مشتعلاً، ولكن بمجرد أن أنطفأ وهج رغبتهما، بدأ الملكان الأرضيان يعيان أن أول ليلة لهما على الأرض اقترفا كبيرتين هما القتل و الزنا، قال الله لهما: "اختارا ما بين العقاب في الحياة الدنيا أو العقاب في الآخرة "، في مرارة ندمهما اختار الملكان الساقطان عقوبة الحياة الدنيا: فحكم عليهما أن يعلقا في سلاسل ما بين السماء و الأرض، وأن يظلا معلقين حتى يوم الدين كتحذير للملائكة و البشر من أن كل فضيلة تدمر ذاتها إذا خلت من التواضع، ولكن عيون البشر لا ترى الملائكة حول الله "المتألقة" إلى نجم في السماء ليراها البشر ويتذكرون القصة و يتذكرون مصير هاروت و ماروت)[28].

فالمراد من هذهِ القصة هاروت و ماروت الملكان، أن هما لم يتعرضا ابدًا للإغراء و الإغواء و قد عدوا نفسيهما تقيين نقيين أكثر من البشر، فأراد الله اختيارهما فنزلهما على الأرض يوماً واحداً فقد اقترفا ذنبًا كبيرًا، فقد أعلن الإسلام أن جذور المبدأ التوحيدي الوجود لدى البشر موجود بالفطرة البشرية، على العكس من المسيحية الذي يرى أن الإنسان يولد وهو يحمل ذنب " الخطيئة الأولى"[29].

فقد(نرى أسد تحدث عن المرأة في أكثر من موضع من كتابه (الطريق إلى مكة)، فقد تحدث هنا عن الزوجة وكيف يراها الراحلة، كان يتحدث إلى أحد الأشخاص وقال له: " لعقلك عليك حق، كما أن لبدنك عليك حقًا...تزوج".

فقد شاهدتُ في نجد أن الزواج يعدُّ حلاً لأي نوع من أنواع الحيرة بعد ذلك ضحكت، ضحكة العالية خرجت مني: " ولكنك يا شيخ تعرف أني تزوجت منذ عامين، وولد لي ابن هذا العام ".

وبعد ذلك قال: " إذا كان قلب الرجل مستريحًا مع زوجه، فإنه يقضي في بيته أغلب وقته، وأنت لا تمكث في البيت...وعدا ذلك لن يضر المرء أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية ".

(كان هو ذاته له ثلاث زوجات، وقيل لي: إن أصغرهن، التي تزوجها من شهرين تبلغ بالكاد السادسة عشرة، مع أنه تجاوز السبعين))[30].

وبعد ذلك طال الحديث بينهما متسائلاً: "كما تقول ربما لا يضر المرء أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية، ولكن ماذا عن الأولى ؟ ألن يضرها ذلك؟

فقد كان رده لافت للنظر رد قائلاً: " يا بني لو كانت المرأة تستحوذ على قلب زوجها كله، لن يفكر ولن يحتاج للزواج من أخرى، وأنه لم يكن جماع قلبه معها، هل يفيد أن تحتفظ بنصف قلبه و نصف مشاعره؟ "، ويقول: لم أجد بالطبع الرد بها على ذلك.

وقد لا ننسى أن الإسلام يوصي بالتعدد بالزواج في أكثر من واحدة إلا أنه لم يسمح بالزواج من أربع زوجات في أحوال استثنائية، ويطرح سؤال على نفسه ويقول: لماذا الإسلام لم يمنح الحق نفسه للمرأة ؟[31].

فقد نرى أن كل من الراحلة تختلف وجه النظر التي نقلها لنا، نجد أنّه الرحلة يصور في رحلته أنها كانت منفعلة وتابعة وخاضعة (تعدد الزوجات و الرق) وهو ما يعكس وضع المرأة بإعتبارها موضوعًا تابعًا لدى ما نقلهُ عن ثقافة البعض من الراحلة[32].

فإنه (الإجابة بسيطة: فبغض النظر عن حقيقة الحب و العواطف التي دخلت حياة البشر على مدى تطور الجنس البشري، فإن السبب (البيولوجي) الكامن وراء رغبة كلا الجنسين هو التناسل وبينما يكون بقدرة الأنثى أن تحمل طفلاً من رجل واحد فقط، وتحمل الطفل في بطنها لمدة تسعة أشهر، وقبل أن يصبح لديها القدرة على حمل طفل آخر، حتى أنه من الممكن أن يهب طفلاً في كل مرة يضاجع فيها امرأة).

فقد(يقول نجد أن طبيعة الخلق لن يضيف اذا وهب للمرأة غريزة تعداد الأزواج، و نجد أن غريزة التعدد لدى الرجل من وجهة نظر التناسل مبررة ومشروعة، ومن الواضح أن العنصر البيولوجي المرتبط بالمتعة البدنية واحد ولا يوجد اختلاف بين شؤون الحب أي العنصر أساسي وهو المحدد في شؤون مؤسسة الزواج الاجتماعية).

لذلك (سمح للرجال الزواج والذي يشمل بالطبع العناية بالنسل، لذلك سمح للرجل بأكثر من امرأة، بينما لم يسمح للمرأة بالزواج من أكثر من رجل).

فقد(أجاز الإسلام تعدد بأكثر من امرأة، ولذلك من حق الزوجة الأولى طلب الطلاق في حال لم تقبل بزوجة أخرى عليها، و ان الزواج في الإسلام ليس مقدسًا بل أنه تعاقد مدني، فإن الطلاق حق متاح دائمًا لطرفي العلاقة، ودرجة العار التي تصاحب المرأة المطلقة في المجتمعات الغير إسلامية وغير موجود في إسلام، وفي الوقت الراهن تتيح الشريعة الإسلامية لكل من الرجال والنساء حرية الزواج والطلاق، ويعد الزنا من أشنع وأبشع الكبائر، فقد يقول أسد: أنه لا يوجد مبرر عاطفي ولا حسي لمقترف كبير الزنا، ويعد هذا التخلف الاجتماعي الذي تجعل

من الصعب المرأة أن تطالب بحقها في الطلاق بحرية، بقدر ما يلام المجتمعات الاجتماعية المختلفة، ولا نجد في القرآن ولا في حياة الرسول أي محاذير على ممارسة المرأة لحقها في طلب الطلاق)[33].

وهذا ما رأيناهُ عند بعض الرحالة سخريته من قلة غيرتهم، والتي لمسها في مصاحبة النساء و للرجال، "ميث قلّة الغيرة الذي وجد فيه الرحالة العربي المسلم مادة خصبة للتندر بالأخر والسخرية منه والحط من قيمته "، وهذا ما رأيناهُ عند بعض الرحالة المحدثين[34].

فقد (ينقلوا الراحلة لنا أن بيوت أهل مكة المبهجة لم تكن كافية، وقد كان أحد الراحلة منزعج لأن الضحك والموسيقى غائبان بشكل واضح و النساء غير مرئيات في الشوارع).

وفي (المناسبات النادرة التي يخرجن فيها يرتدين الخمار وهو غطاء كتان ثقيل واسع يبعد قليلاً عن أجسادهنّ غير المعروفة الملامح ورداؤهن يلمس الأرض حتى أقدامهن)[35].

فقد يرى الرحالة المرأة بأشكال مختلفة ومسؤوليات متعددة ولكل منها وحقوق وواجبات فقد وضعها الإسلام لكي يضمن حقوقها اتجاه المجتمع.

(لم يتفق أسد مع هذا الطرح من الأفكار الأدبية في وصف الشرق بأوصاف غير واقعية ولهذا اختار أسد عنوان (الشرق غير الرومانسي) لكتابهِ الجديد من أجل عرض الحقائق عن الحياة اليومية الشرقية (وليس عرض صور روائية رومانسية بعيدة كل البعد عن الشرق)، مع أنه لم يتناول الواقع الشرقي الحقيقي بتفصيلاته في أثناء تأليف سيرته الذاتية، لم يتمكن محمد أسد وحده و برأيه المُنحصر في كتابه (الشرق غير الرومانسي))[36].

(تميز كتاب أسد " الشرق غير الرومانسي بوصف الأوضاع و الأحداث التي شاهدها أسد في أثناء رحلته من لبنان إلى إسطنبول عبر مصر، عند إجراء مقارنة بين مقالات أسد الثمانية المنشورة في جريدة فرانكفورت و كتابه " الشرق غير الرومانسي "، يتبين أن هذا الكتاب يشتمل على وصف دقيق لعدة مشاهدات قبيل إقامته في دمشق، علمًا بأن أسد كتب جزءًا كبيرًا من كتابه " الشرق غير الرومانسي " في 10أكتوبر عام 1923م إبّان إقامته في جزيرة مالطا)[37].

فقد ذَكر أسد أن سبب تسميته لكتابه " الشرق غير الرومانسي " في " محاولة لإظهار الحقائق اليومية في المشرق، وليس الهدف من هذه التسمية إضفاء انطباعات غربية ورومانسية على الأجواء الشرقية ".

(وقد اعتزل ليوبولد فايس عن العمل الدبلوماسي و تنازل عن منصب سفير لدولة السويد في المغرب بعدما اعتنق الإسلام في عام 1986م، نشر كتابًا صدر بعنوان (رسالة القرآن)، ضم ترجمة القرآن إلى اللغة السويدية، كما اقتبس عددًا من التوضيحات و التعليقات من كتاب (رسالة القرآن)، لمحمد أسد بعد أخذ موافقته بذلك)[38].

النتائج:

من الممكن أن نسجل النتائج التالية بعد اكتمال الدراسة، وهي كالآتي:

-يدخل كتاب (الطريق إلى مكة) في أدب الرحلات والسفر، ولكنه مكتوب في تمجيد فضائل المكان المقصود وفي التعريف بفضائل أهله.

–وتعدَّ زيارته إلى مكة تأكيدا لدخول هذا المستشرق إلى الإسلام والمجاهرة في التعبد بطقوسه، وزيارة أماكنه المقدسة لغرض كشف ما تنطوي عليه هذه الأماكن من منزلة سامية ومكانة عليا توارثها المسلمون من قديم الزمن وأصبحت سلوكا حضاريا دالا على قيمة المكان وعلى أهمية التردد عليه لأستذكار الشخصية المركزية الأولى والمؤسسة لهذه الديانة، أي شخصية النبي محمد.

–لم يخل الكتاب من معلومات ضرورية للقارئ الأوربي الذي كتب الكتاب له بهدف تعديل الصورة النمطية التي رسمتها الأقلام المرتبطة بالاستعمار والهيمنة فترددت في صفحاته ألوان من المعارف التاريخية والجغرافية والعمرانية الضرورية لمعرفة المكان.

– لا يمكن عدّ الرحالة ليوبولد فايس أو (محمد أسد) سائحا اعتياديا كأيّ سائح، بل هو سائح بشعور راصد وقلم منصف ومدون بلا عقدة نقص من الآخر الذي قرر أن ينتمي إليه لما في تعاليمه وطقوسه من سمو روحي ومن عمق حضاري يطمئن إليه الباحث عن الحقيقة دوما.

– فقد نقل إلينا محمد أسد عدة صور اجتماعية من المكان المزار، منها صورة المرأة التي لفتت انتباهه باختلافها عن مثيلتها، فإذا كانت الأوربية مكشوفة للناظر فالمرأة المسلمة بحجابها وسترها كالنجم البعيد المتلألئ، كما تحدث عن الأسواق ومعاملاتها، والناس وأخلاقهم دون تحيز أو تعصب.

الهوامش:

(1) الطريق إلى مكّة، ليو بولد فايس (محمد أسد)، تر: رفعت السيد علي، منشورات الجمل، بغداد –بيروت، 2010، ط1، ص555.

(2) ينظر: دروب المعرفة للترجمة، ترجمة (عماد شراب)،محمد أسد ليو بولد فايس (سابقًا) حلقة في اليوتيوب بتاريخ 9/9/ 2019م.

(3) ينظر: في الطريق إلى مَكَّة (ليوبولدفايس)، ترتيب: الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين، مركز المربي، 1438هـ–2017م، ط 1، ص7.

(4) نقلا عن كتاب: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية 1900–1927م جونثرفندهاغر، ترجمة سلام عمر محمود، دار الملك عبد العزيز، 2016م، (د.ط) ص62

(5) المصدر نفسه، ص 63.

(6) تأملات، حلقة عن إسلام ليوبولدفايس مسجلة على اليوتيوب، في 2020سنة، وينظر مقدمة كتابه في الطريق إلى مكة، ص7.

(7) الطريق إلى مكة، ترتيب: صالح بن عبد الرحمن الحصين، مؤسسة الوقف، 1431هـ، ص 8–10.

(8) طريقة محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام، حلقة يوتيوب،ج1

(9) ينظر: ترجمة محمد أسد للقرآن الكريم، د. إبراهيم عوض موقع شبكة أهل التفسير.
https://vb.tafsir.net/tafsir

(10) محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية، ص78–79.

(11) ينظر: المصدر نفسه، ص 84.

(12) طريقة محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام، حلقة يوتيوب،ج1.

(13) ينظر: من مكة إلى لاس فيجاس (أطروحات نقدية في العمارة و القداسة)، د. علي عبد الرؤف دار الكتب المصرية (الزيتون القاهرة)، ط2 (المحرم1436هـ –نوفمبر 2014 م)، ص30.

(14)ينظر: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية، ص34.

(15) ينظر المصدر نفسه، ص42.

(16) الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط8، 2010م،ص188.

(17) ينظر: الطريق إلى مكة، ص264.

(18) ينظر:المصدر نفسه، ص266.

(19) الطريق إلى مكة، ص41.

(20) المصدر نفسه، ص39.

(21) المصدر نفسه، ص40.

(22) ينظر: المصدر نفسه، ص377.

(23) المصدر نفسه، ص49.

(24) ينظر: الطريق إلى مكة، ليوبولدفايس، ص64.

(25) ينظر:صورة الآخرفي رحلات عربية (من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الواحد و العشرين)،بوشعيب الساروي،النايا للدراسات و النشر، بيروت –لبنان، 2014، ط1، ص14.

(26) ينظر: صورة الآخر في رحلات عربية، ص18.

(27) الطريق إلى مكة، ليوبولدفايس، ص223

(28) المصدر نفسه، ص224.

(29) ينظر: المصدر نفسه، ص225.

(30) الطريق إلى مكة، ليوبولدفايس، ص423.

(31) ينظر: المصدر نفسه، ص424.

(32) ينظر: صورة الآخر في رحلات عربية، ص20.

(33) الطريق إلى مكة، ليوبولدفايس، ص425.

(34) ينظر: صورة الآخر في رحلات عربية، ص47.

(35) مكة المدينة المقدسة، ص361.

(36) محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية، ص42.

(37) المصدر نفسه، ص180–182.

(38) المصدر نفسه، ص،46–49.

المصادر والمراجع:

1- الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط8، 2010م.

2- الطريق إلى مكّة، ليو بولد فايس (محمد أسد)، تر: رفعت السيد علي، منشورات الجمل، بغداد–بيروت، 2010، ط1.

3- تأملات، حلقة عن إسلام ليوبولدفايس مسجلة على اليوتيوب، في 2020سنة.

4- ترجمة محمد أسد للقرآن الكريم، د. إبراهيم عوض موقع شبكة أهل التفسير. https://vb.tafsir.net/tafsir.

5- دروب المعرفة للترجمة، ترجمة (عماد شراب)، محمد أسد ليو بولد فايس (سابقًا) حلقة في اليوتيوب بتاريخ 9/9/ 2019م.

6- صورة الآخرفي رحلات عربية (من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الواحد و العشرين)، بوشعيب الساروي،النايا للدراسات و النشر، بيروت –لبنان، 2014، ط1.

7- طريقة محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام، حلقة يوتيوب،ج1.

8- في الطريق إلى مَكَّة(ليوبولدفايس)، ترتيب: الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين، مركز المربي، 1438هـ–2017م،ط 1.

9- محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية 1900–1927م جونثرفندهاغر، ترجمة سلام عمر محمود، دار الملك عبد العزيز، 2016م، (د.ط).

10- من مكة إلى لاس فيجاس (أطروحات نقدية في العمارة و القداسة)، د. علي عبد الرؤف دار الكتب المصرية (الزيتون القاهرة)، ط2 (المحرم1436هـ –نوفمبر 2014 م).